الصراع العثماني الصفوي وتأثيره على البلاد العربية :

احتاجت الدولة العباسية في عصر هارون الرشيد لتعيين عدد كبير من القضاة في بلاد ماوراء النهر ، اي اوزبكستان وطاجيكستان وغازخستان وقرغيزيا ، وكان قاضي القضاة والمشرف على التعيينات يومها هو ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصاري (١١٣– ١٨٢ هـ) ، ولأنه كان من تلاميذ الفقيه ابي حنيفة النعمان بن ثابت (٨٠ –١٥٠ هـ) ، فقد عين زملائه وتلاميذه في هذه المناصب مما ادى الى نشر المذهب الحنفي في جميع اسيا الوسطى وبضمنها باكستان وافغانستان ، ورغم إن الدولة العباسية قد تبنت المذهب الشافعي رسمياً في عهد المتوكل وعملت على نشره ، فقد ظلت جميع المناطق الواقعة شرق ايران متمسكة بالمذهب الحنفي . أما في اندينوسيا وماليزيا والفلبين فلم يعرفوا الاسلام قبل قدوم تجار اليمن وحضرموت الشوافع اليهم بعد القرن الحادي أوالثاني عشر الميلاديين ، ولهذا فقد صار اغلبية المسلمين في هذه البلدان سنة شافعية مع اقلية ضئيلة من الشيعة الزيدية التي انتهم من اليمن .

في القرنين الآخيرين اللذين سبقا سقوط الدولة العباسية ، حصلت حركات نزوح كبيرة من مناطق اسيا الوسطى نحو الجنوب والغرب ، ولايوجد تفسير واضح لهذه الهجرات المتعاقبة سوى إن القبائل الرعوية المهاجرة كانت تبحث لها عن مراع جديدة لأغنامها بعد أن ضاقت عليهم مراعيهم القديمة .

كانت هذه القبائل بمعظمها تتكلم بلهجات متقاربة مشتقة من اللغة العثمانية وتدين بالمذهب الحنفي ، وقد استطاعت الهيمنة على مناطق كبيرة من شمال افغانستان وجميع اراضي تركمانستان واذربايجان ووسط وغرب الاناضول وصبغها بالصبغة العثمانية ، وفي زمن ما تشيعت بعض هذه القبائل وخاصة الموجودة في اذربايجان

الشمالية التي عاصمتها باكو والجنوبية التي عاصمتها تبريز كما تشيعت مجموعة من القبائل التي استوطنت شرق الاناضول . بالمقابل انتشر التصوف بين عدة قبائل تركمانية .

قبيل القرن الخامس عشر الميلادي بدأت الدول التركمانية بالظهور في الشرق الاوسط واحدة تلو الاخرى مستغلة انحسار المد المغولي وضعف الدويلات التي اعقبته ، فظهرت الدولة العثمانية في شمال غرب الاناضول واتخذت من بورصة عاصمة لها ، وظهرت دولة قرة قوينلو (الخروف الاسود) في تبريز وامتدت لتحتل العراق بعد انهيار الدولة الجلائرية ، ثم ظهرت فيما بعد دولة آق قوينلو (الخروف الابيض) في شرق الاناضول .

في مطلع القرن الخامس عشر تعرضت منطقة الشرق الاوسط بكاملها الى غزو همجي متوحش ، فقد قام تيمورلنك (أي الاعرج) وانطلاقاً من عاصمته سمرقند (اوزبكستان) بأجتياح مناطق اسيا الوسطى ، ثم انعطف ليهاجم تركمانستان وايران وشمال العراق وسوريا والاناضول ، ومما يذكره المؤرخون إن هذا السفاح الذي يدعي الاسلام قد قتل مئات الالوف من الناس وانشأ برجاً في دمشق من رؤوس القتلى ، وقد ارتكب جيشه جرائم وحشية عنيفة في مختلف البلدان التي مر بها.

تسببت غزوات تيمور لنك بخضوع جميع القبائل التركمانية صلحاً او حرباً لسلطته ، ولكن لأن الدولة العثمانية قاومته ووقفت ضده دمرها واسر سلطانها بايزيد الاول وحمله معه الى سمرقند . بعد عودة تيمور لنك الى مملكته نهضت الامارات والممالك التي اكتسحها من كبوتها ، فعادت سوريا بيد مماليك مصر ، ونهض اولاد واحفاد بايزيد الاول وحثوا القبائل التركمانية على اعادة التحالفات القديمة واعادة بناء الدولة العثمانية ، كما نهضت دولة الخروف الاسود في تبريز من جديد ، اما في شرق الاناضول فقد نصب تيمورلنك قرة يلك عثمان كحاكماً اقليمياً على المنطقة

فأتخذ من ديار بكر عاصمة محلية له ، ثم مالبث أن استقل عن سلطة الدولة التيمورية واسس دولته الخاصة التي سميت بالخروف الابيض .

بعد اقل من خمسين عام على حملة تيمورلنك اعادت الدولة العثمانية بناء نفسها ، واستطاع سلاطين آل عثمان المتعاقبين من قولبة مقاتلي القبائل الرعوية التركمانية وتحويلهم الى جيش نظامي رسمي ، كما استطاعوا من تطوير سلطنتهم من تجمع قبلي يدين بالولاء لزعيم آل عثمان ، الى دولة ذات مؤسسات (ولو بسيطة) ولها انظمة وقوانين ثابتة ، وذلك تأثراً بدول اوربا الشرقية القريبة منهم كما يبدو ، ولقد ساعدت التنظيمات الجديدة الدولة العثمانية على تسليح جيشها وتدريبه ليصبح من اقوى جيوش المنطقة ، وبواسطة هذا الجيش استطاعت الهيمنة على معظم اراضي غرب الاناضول ، ثم قرر العثمانيون الزحف شمالاً نحو اوربا ، فعبر الجيش العثماني مضيق الدردنيل واستولى على اراض شاسعة في جنوب شرق اوربا واصطدم بالبيزنطيين والبلغار والرومانيين ، وهذا الزحف تسبب بمحاصرة القسطنطينية من ثلاث جهات وساعد على سقوطها لاحقاً بيد العثمانيين سنة ١٤٥٣ ، فتم تغيير اسمها الى اسلامبول (أي مدينة الاسلام) ثم حرف هذا الاسم لاحقاً الى اسطنبول .

في منتصف القرن الخامس عشر كان ابناء واحفاد المتصوف صفي الدين اسحاق الاردبيلي قد ترأسوا تكيته ومدرسته من بعده ، واستطاعوا تشكيل امارتهم الخاصة في مدينة اردبيل ومحيطها (تقع في شمال ايران وعلى مبعدة ٣٠ كيلومتر غرب بحر قزوين) ، وكانوا طامحين بتوسيع هذه الامارة وتحويلها الى دولة كبيرة شبيهة بدولتي الاق والقرة قوينلو . كان طموح الصفويين يصطدم دائماً بوجود دول وحكام اقوياء في المنطقة ، فأختاروا اعداد جيشهم الخاص الموالي لهم من تلاميذ ومريدي جدهم صفي الدين وانتظار الفرصة المناسبة لتشكيل الدولة ، لكنهم استمروا على تصوفهم

حتى غيروا اتجاههم الفكري والسياسي في عهد شيخهم جنيد بن ابراهيم (المتوفى عام ١٤٥٦-٥٧) الى التشيع .

كان الشيخ جنيد طموحاً جداً ومستعداً لركوب المخاطر والصعاب وانتهاز الفرص من اجل تحقيق حلم ابائه بالملك والسلطة ، ونسبه هو جنيد بن ابراهيم بن علاء الدين علي بن صدر الدين موسى بن صفي الدين اسحاق الاردبيلي ، أي إن الشيخ صفي الدين يكون جد جده ، ولأن السلطة السياسية اهم لديه من الأيمان والثبات على العقيدة ، فقد غير ولائه وولاء اتباعه من صوفية متشيعة الى شيعة متصوفة .

يروى إن سبب تحول الشيخ جنيد للتشيع هو كون اغلبية سكان اذربيجان شيعة امامية ، وبالتالي كان لابد له من مجاراة العامة وجذب القبائل التركمانية الشيعية لزعامته.

في منتصف القرن الخامس عشر كذلك ، كان هنالك صراع دموي عنيف يدور بين دولتي الخروف الابيض والاسود ، ولم يكن الصراع قائماً على خلاف ديني أو مذهبي بين الطرفين ، بل مجرد صراع بين الملوك على المال والسلطة ، وانتهى الصراع بأن انتزعت دولة الآق قوينلو مدينة تبريز وعموم اذربايجان من غريمتها القرة قوينلو واسقطتها نهائياً عام ١٤٦٩ ، ثم مالبثت ان استولت على اجزاء كبيرة من العراق وايران واصبحت تنافس الدولة العثمانية من ناحية مساحة الاراضي التي تحكمها كلاً من الدولتين . كان الصفويون في ذلك الوقت يراقبون صراع الملوك ويستعدون لأعلان دولتهم ، وبعد أن خاضت دولة الآق قوينلو عدة صراعات دموية عنيفة مع الدول المجاورة لها تسببت بأنهاك جيشها واضعاف قوتها ، وجد الصفويون في ذلك فرصتهم التاريخية لتوسيع دولتهم وذلك في اواخر القرن الخامس عشر ، واستطاعوا عام ١٥٠٠ من تأسيس دولة شيعية في اذربيجان ، ولحد هذه النقطة لم يكن هنالك أي خلاف بين التركمان الشيعة والسنة .

في حين كانت الدولة العثمانية تتمدد بشكل متواصل نحو شرق وجنوب الاناضول ، وتبتلع جميع الامارات الكردية أو العثمانية التي تقف حجر عثرة في طريقها ، كما كان للعثمانيين مطامح واطماع كبيرة سببت الخوف لجميع ممالك الشرق الاوسط ، ورغم محاولة العثمانيين ارسال الوفود والسفراء لتهدئة مخاوف جيرانهم ، إلا إن ممالك الشرق كانت تتوجس منهم شراً ، وخاصة بعد استيلاء العثمانيين على القسطنطينة وامتلاكهم لمدافع حديثة متطورة بالنسبة لجيرانهم الضعفاء .

كان كل من الصفويين والمماليك يخشون قيام الدولة العثمانية بغزوهم ، وفي سياسة متعجلة وقصيرة النظر حاول اسماعيل الصفوي عقد تحالف مع قانصوه الغوري ضد الدولة العثمانية ، وقام بتحريض القبائل التركمانية القريبة من العثمانيين لأثارة المشاكل والفوضى ومهاجمة اطراف الدولة العثمانية ، وقد تسببت هذه التصرفات بأثارة غضب سليم الاول ورغبته للأنتقام منه .

كان سليم الاول يفكر جدياً بغزو مصر وبلاد الشام ، فأستيلائه على هذين الاقليمين سيقوي مركز العثمانيين اقتصادياً وسياسياً ، ويجعلهم اكبر واقوى دولة في الشرق الاوسط ، ولكن كان عليه تصفيه حساباته مع الصفويين اولاً والقضاء على بعض الامارات الشيعية الصغيرة الواقعة في وسط وشرق الاناضول ، حيث من غير المعقول عسكرياً مقاتلة المماليك وترك اصدقائهم يسرحون ويمرحون خلف ظهره .

لم يكن للعثمانيين أية حجة لتبرير حربهم ضد الصفويين ، وكذلك خافوا من قيام بعض القبائل التركمانية السنية بالانقلاب عليهم ومساندة الصفويين في حالة وقوع الحرب بينهما ، وذلك لأن القبائل التركمانية تجد الصفويين مازالوا قريبين من النظام القبلي التركماني والذي انسلخ العثمانيون عنه حين طوروا نظام دولتهم وحدثوه

. فكر سليم الاول بحجة ما لتبرير هذه الحرب ، فلجأ الى الاختلاف المذهبي ليسوغ صراعه مع الصفويين .

لقد كانت هذه الحجج الدينية المستحدثة سبباً كافياً لاقناع القبائل التركمانية السنية بعدم الانقلاب على العثمانيين ومساندة اخوانهم الشيعة ، وهكذا سار الجيش العثماني لملاقاة الصفويين في معركة دموية طاحنة دارت في سهل جاليدران الواقع وسط جبال ارارات في ٢٣ آب (اغسطس) عام ١٥١٤ ، وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة للصفويين وفرار ملكهم اسماعيل من ساحة المعركة ، واستطاع العثمانيون بعدها من التوغل في اذربايجان واحتلال مدينة تبريز عاصمة الصفويين ، ألا إنهم وبعد شهرين انسحبوا منها وذلك لقيام الصفويين بحرق مخازن الغلال والاغذية مما سيترك العثمانيين يواجهون البرد والمجاعة لو بقوا فيها .